لمحاتٌ في إعجاز سورة الفتح

بقلم

الدّكتور حسن محمّد باجودة

أستاذ الدّراسات القرآنيّة البيانيّة

وعميد كلّيّة اللّغة العربيّة

جامعة أمّ القرى بمكّة المكرّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين ،والصّلاة والسّلام على أشرف المرسلين،سيّدنا محمّد ، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد :

فهذه دراسة بعنوان: لمحاتٌ في إعجاز سورة الفتح.وهي من المدنيّ من القرآن.وقد نزلت على النّبيّ ﷺ في طريق عودته إلى المدينة المنوّرة عقب صلح الحديبية في ذي القعدة سنّة ستٍّ من الهجرة. والدّراسة ذات شقّين. أحدهما مسائل متعلّقة بسورة الفتح،وهي مسائل تلقى شيئاً من الضّوء على السّورة الكريمة. وآخرهما إعجاز سورة الفتح في مجال الإنباء بالغيب . ولعلّ سورة الفتح الكريمة تشتمل من بين سور القرآن الكريم على أكبر حشدٍ من الأنباء في مجال الغيب والحديث عن المستقبل . ويأتي على رأس الأنباء بالغيب صلح الحديبية الّذي عبّرت عنه أولى آيات السّورة الكريمة بأنّه فتحٌ مبين . وصلح الحديبية هو محور سورة الفتح الكريمة.

واللهَ تعالى أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، ويتقبّله، وينفع به، إنّ جوادٌ كريم.

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين .

مكّة المكرّمة

صبيحة يوم الأحد ١٤٢٢/٨/١٩هـ

الموافق ٢٠٠١/١١/٤م

كتبه الفقير إلى عفو ربّه

د . حسن محمّد باجودة

أستاذ الدّراسات القرآنيّة البيانيّة

جامعة أمّ القرى بمكّة المكرّمة

أَوَّلاً:

مسائل متعلّقة بسورة الفتح

١- سورة الفتح من المدنيّ من القرآن الكريم الّذي نزل على النّبيّ ﷺ بعد الهجرة [١] وكان نزولها في أثناء عودة النّبيّ ﷺ بعد صلح الحديبية إلى المدينة المنوّرة بمكانٍ يُسَمَّى ضَجْنان، بفتح المعجمة وسكون الجيم ونون خفيفة، أو بكُراع الغَمِيم، أو بالجُحْفة.والأماكن الثّلاثة متقاربة [٢]رَوَى البخاريّ في صحيحه [٣] أنّ رسول الله ﷺ كان يسير في بعض أسفاره وعمر بن الخطّاب يسير معه ليلاً، فسأله عمر بن الخطّاب عن شيءٍ فلم يجبه رسول الله ﷺ. ثمّ سأله فلم يُجِبْه، ثمّ سأله فلم يُجِبْه. فقال عمر بن الخطاب: ثَكِلَت أمُّ عمر[٤] نَزَرتَ[٥] رسول الله ﷺ ثلاث مرّاتٍ، كلَّ ذلك لايجيبك.قال عمر: فحرّكت بعيري ثمّ تقدّمتُ أمام النّاس، وخشيت أن ينزل فيَّ القرآن. فما نَشِبْت[٦] أن سمعت صارخاً يَصْرُخ بي، فقلت: لقد خشيت أن يكون نزل فيّ قرآن. فجئت

---

[١] الإتقان ١/٤٣.

[٢] فتح الباري ٨/٥٨٣.

[٣] فتح الباري ٨/٥٨٢ حديث رقم ٤٨٣٣ وانظر ٧/٤٥٢ حديث رقم ٤١٧٧ و ٩/٥٨ حديث رقم ٥٠١٢.

[٤] الثُّكل والثَّكل، بضمّ وسكون وبفتحتين:فقدان المرأة ولدها.

[٥] نَزَرْت رسول الله ﷺ: ألححت عليه.

[٦] فما نشِبت: فما تعلّقت بشيءٍ غير ماذكرت.

رسول الله ﷺ فسلّمت عليه فقال: لقد أنْزلَتْ عليَّ اللّيلةَ سورةٌ لَهِي أحبُّ إليَّ ممّا طَلَعَتْ عليه الشّمس. ثمّ قرأ: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾.

٢- عدد آيات السّورة الكريمة تسعٌ وعشرون آية[١]

٣- سمّيت السّورة الكريمة سورة الفتح لقول الحقّ جلّ وعلا في الآية الكريمة الأولى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ **علماً بأنّ لفظة:** ﴿ فَتْحًا ﴾ **في هيئة النّصب جاءت أربع مرّات في القرآن الكريم، منها ثلاث مرّاتٍ في سورة الفتح الكريمة، في الآية الكريمة الأولى،وفي الآية الكريمة الثّامنة عشرة. قال تعالى:** ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾**وفي الآية الكريمة السّابعة والعشرين. قال تعالى:** ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ

[١] تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنّيسابوري ٤٣/٢٦ مطبوع بهامش الطّبري.

فَتْحًا قَرِيبًا ﴾وجاء في سورة الشّعراء في الآية الكريمة الثّامنة عشرة بعد المائة على لسان نوح عليه السّلام قوله تعالى: ﴿ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾.

٤- رَوَى البخاريّ في صحيحه[١] عن معاويةَ بن قُرّة عن عبدالله ابن مغفَّل قال:قرأ النّبيّ ﷺ يوم فتح مكّة سورة الفتح فرجّع فيها. قال معاوية: لو شئت أن أحكي لكم قراءة النّبيّ ﷺ لفعلت. ورَوَى الإمام أحمد الحديث عن عبدالله بن مغفّل قال: قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح في مسيره سورة الفتح على راحلته فرجَّع فيها. قال معاوية: لولا أنّي أكره أن يجتمع النّاس علينا لحكيت لكم قراءته. أخرجاه [٢] من حديثٍ شُعْبَةُ به [٣] والتّرجيع ترديد القراءة ، ومنه التّرجيع في الأذان: أن يكرّر قوله: أشهد أن لا إله إلّا الله، أشهد أنّ محمّداً رسول الله [٤] ويُفْهَم من قول معاوية بن قرّة، أحد رواة الحديث:" لولا أنّي أكره أن يجتمع النّاس علينا لحكيت لكم قراءته" يُفْهَم أنّ التّرجيع في قراءة القرآن الكريم يرتبط به ارتفاع

---

[١] فتح الباري ٥٨٣/٨ حديث رقم ٤٨٣٥.

[٢] فتح الباري ٥٨٣/٨ حديث رقم ٤٨٣٥ وصحيح مسلم ٥٤٧/١ حديث رقم ٧٩٤.

[٣] تفسير ابن كثير ٣٠٧/٧.

[٤] انظر لسان العرب:"رجع".

الصّوت والتّرنّم. وجاء في صحيح مسلم [1] : " فرجّع في قراءته. قال معاوية: لولا أنّي أخاف أن يجتمع عليَّ النّاس لحكيت لكم قراءته" فرجّع في قراءته: قال القاضي عياض: أجمع العلماء على استحباب تحسين الصّوت بالقراءة وترتيلها. قال أبو عبيد: والأحاديث الواردة في ذلك محمولةٌ على التّحزين والتّشويق. قال: واختلفوا في القراءة بالألحان. فكرهها مالك والجمهور لخروجها عمّا جاء القرآن له من الخشوع والتّفهّم. وأباحها أبو حنيفة وجماعةٌ من السّلف [2] .

٥- محور سورة الفتح الكريمة صلح الحديبية الّذي كان في شهر ذي القعدة سنة ستٍّ من الهجرة [3] رَوَى الإمام أحمد عن مجمعَ ابن جارية الأنصاريّ أنّ النّبيّ ﷺ لمّا أوحى الله تعالى إليه سورة الفتح اجتمع النّاس عليه وهو على راحلته عند كراع الغَمِيم فقرأ عليهم: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ فقال رجلٌ من أصحاب

---

[1] ١/٥٤٧ حديث رقم ٧٩٤.

[2] صحيح مسلم بشرح الإمام النّووي تحقيق محمّد فؤاد عبدالباقي ١/٥٤٧ هامش رقم ١.

[3] تفسير ابن كثير ٧/٣٠٧.

رسول الله ﷺ: أَيْ رسولَ الله، وفتحٌ هو؟ قال: إي والّذي نفس محمّدٍ بيده، إنّه لفتح [1].

٦- جاءت لفظة سكينة ستّ مرّاتٍ في القرآن الكريم . منها مرّةٌ واحدةٌ في سورة البقرة، ومرّتان اثنتان في سورة التّوبة، وثلاث مرّات في سورة الفتح. في الآية الكريمة الرّابعة. قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ **وفي الآية الكريمة الثّامنة عشرة. قال تعالى:** ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ **وفي الآية الكريمة السّادسة والعشرين. قال تعالى:** ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ **لقد كان المؤمنون بحاجةٍ إلى إنزال السّكينة عليهم**

---

[1] تفسير ابن كثير ٣٠٨/٧.

لأنّ المشركين صدّوهم عن المسجد الحرام، ولأنّهم كانوا يظنّون أنّهم سوف يعتمرون في ذلك العام.

٧- في مقابل السّكينة الّتي أنزلها الله تعالى على المؤمنين جعل الّذين كفروا في قلوبهم الحميّة حميّة الجاهليّة ونَعْرتها وعنجهيّتها. وقد جاءت لفظة حميّة مرّتين في القرآن الكريم كلّه وذلك في الآية الكريمة السّادسة والعشرين من سورة الفتح وَحْدَها.

٨- جاء الحديث عن بيعة الرّضوان في الآية الكريمة العاشرة. قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ وجاء النّصّ على رضا الله تعالى عن أصحاب بيعة الرّضوان في الآية الكريمة الثّامنة عشرة. قال تعالى : ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾.

٩- جاء في تسع آياتٍ كريماتٍ النّصّ على الرّسالة والرّسول وذلك بقصد تسلية المصطفى ﷺ وتسفيه المشركين

الّذين أصرّوا على أن يُحْذف من وثيقة الصّلح صفة رسالة النّبيّ ﷺ.وهذه الآيات الكريمات هي ٨و٩و١٢و١٣و١٧و٢٦و٢٧و٢٨و٢٩ وإذا كان الشّقّ الأوّل من الشّهادة ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ قد جاء في الآية الكريمة التّاسعة عشرة من سورة محمّد ﷺ السّابقة، فإنّ الشّقّ الآخر من الشّهادة: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ قد جاء في الآية الكريمة التّاسعة والعشرين من سورة الفتح اللّاحقة. وهكذا يكون الشّقّ المتقدّم في السّورة المتقدّمة، والشّقّ المتأخّر في السّورة المتأخّرة.

ثانياً:

إعجاز سورة الفتح في مجال الإنباء بالغيب

الطّابع الخاصّ لسورة الفتح الكريمة:

كلّ سورةٍ من سور القرآن الكريم لها طابعها الخاصّ بها. ويصحّ أن يقال عن سورة الفتح المدنيّة الكريمة إنّ طابعها الخاصّ بها يتعلّق بمظهر من مظاهر إعجاز القرآن الكريم، وهو مجال الإنباء بالغيب والحديث عن المستقبل. وكأنّ السّورة الكريمة تشتمل من بين سائر سور القرآن الكريم على أكبر حشدٍ من الأنباء في مجال الغيب والمستقبل، رغم أنّها سورةٌ تميل إلى القِصر، إذ تتألّف من تسع وعشرين آية، ومن خمسمائة وستّين كلمة [1] .

ونودّ أن نومئ ابتداءً إلى تلك المسائل في مجال الإنباء بالغيب والحديث عن المستقبل. ويصحّ أن يتحقّق ذلك الإيماء بالاستعراض أوّلاً لمعاني السّورة الكريمة وقضاياها، ثمّ ترتيب هذه المسائل تأريخيّاً.

إنّا فتحنا لك يامحمّد فتحاً مبيناً بصلح الحديبية. والمعروف أنّ الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم كانوا في مجموعهم يرون أنّ شروط صلح الحديبية هي في غير صالحهم، والحقيقة أنّها في صالحهم. إنّا فتحنا لك يامحمّد فتحاً مبيناً لتقوم بما يجب عليك من

---

[1] تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنّيسابوري ٤٣/٢٦ مطبوع بهامش تفسير الطّبري.

شكر لله تعالى على نعمه العظيمة وآلائه الجسيمة، ليغفر لك الله ماتقدّم من ذنبك وما تأخّر ويتمّ نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً يفضي إلى النّعيم المقيم في جنّات النّعيم. وينصرك الله تعالى على جميع الأعداء نصراً عزيزاً وغالياً.

ومع أنّ المصطفى ﷺ هو النّبيّ المعصوم فإنّ الحديث عن غفران الله تعالى له ماتأخّر من ذنبه حديثٌ عن المستقبل، وكذلك الحديث عن إتمام النّعمة، والهداية إلى الصّراط المستقيم، والنّصر العزيز.

إنّ الله تعالى هو الّذي أنزل في صلح الحديبية الطّمأنينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم فرضوا بالصّلح مع إيقانهم بأنّهم قادرون بإذن الله تعالى على إلحاق الهزيمة بالمشركين في ميدان القتال. وهذا الإيقان قد أكّدته الآيات الكريمات الثّانية والعشرون، والثّالثة والعشرون، والرّابعة والعشرون من السّورة الكريمة. ولله تعالى جنود السّماوات والأرض الّتي لايعلمها إلّا هو، فهي من الغيب. وأنتم أيّها المؤمنون بعض جنود الله تعالى. وكان الله تعالى عليماً لايخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء، يستوي عنده جلّ وعلا عالم الغيب وعالم الشّهادة، حكيماً في قوله وفعله وحُكْمه وقَدَره وفي كلّ شيء.

إنّا فتحنا لك يامحمّد فتحاً مبيناً لتقوم بما يجب عليك من شكر لله تعالى، وليقوم المؤمنون بما يجب عليهم من شكر لله تعالى على نعمه العظيمة وآلائه الجسيمة، ليدخل عزّ وجلّ المؤمنين والمؤمنات جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، ويكفّر عنهم سيّئاتهم. وكان ذلك الخلود في جنّات النّعيم فوزاً عظيماً عند الله تعالى ونجاحاً كبيراً.وليعذّب الله تعالى المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظّانّين بالله تعالى الظّنّ السّيّء بأنّه عزّ وجلّ لن ينصر رسوله ﷺ والمؤمنين. عليهم دائرة السّوء راجعة، والعذاب السّيّء مرتدّ. وغضب الله تعالى عليهم، وأبعدهم من رحمته، وأعدّ لهم جهنّم يوم القيامة وساءت مصيراً وعاقبة. ولله تعالى جنود السّماوات والأرض الّتي لايعلمها إلّا هو. وكان الله تعالى عزيزاً في ملكه، حكيماً في صنعه.

إنّا أرسلناك يامحمّد شاهداً على أمّتك ومبشّراً من آمن وعمل صالحاً بالجنّة، ومنذراً من كفر وعمل سيّئاً بالنّار. إنّا أرسلناك يامحمّد لتؤمنوا أيّها النّاس بالله تعالى، وبرسوله ﷺ، ولتنصروه عزّ وجلّ، وتبجّلوه، وتسبّحوا بحمده بكرةً وأصيلاً، صباحاً ومساءً، وفي كلّ الأوقات.

إنّ الّذين يبايعونك يامحمّد إنّما يبايعون الله تعالى من فوق سبع سماوات، لأنّ تلك البيعة تمّت بإذنه عزّ وجلّ ورضاه. يد الله تعالى فوق أيديهم لأنّها بيعةٌ قد رضي الله تعالى عنها وعن أصحابها، فمن نكث مستقبلاً فإنّما ينكث على نفسه لأنّ عقاب عدم الوفاء بالعهد ونقض الميثاق مرتدٌّ عليه. ومن أوفى بما عاهد الله تعالى عليه فسيؤتيه الله تعالى أجراً عظيماً. والمعروف أنّ الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم قد وَفَوْا بما عاهدوا الله تعالى عليه.

سيقول لك يامحمّد المتخلّفون عن الخروج معك إلى الحديبية من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاسأل الله تعالى لنا أن يغفر ذنبنا. يقولون بألسنتهم ماليس في قلوبهم ويطلبون أن يستغفر الرّسول ﷺ لهم بدون توبةٍ منهم ولاندم على تفريطهم في جنب الله تعالى. قل لهم يامحمّد: إنّي إذا استغفرت الله تعالى لكم فمن يملك لكم من الله تعالى شيئاً إن أراد بكم ضرّا وشرّا رغم الاستغفار لكم، أو أراد بكم نفعاً وخيراً. الحقيقة أنّ الله تعالى كان بما تعملون خبيراً، فلا يخفى على الله تعالى ماتخفون وتسرّون، ومن باب الأَحْرَى ماتظهرون وتعلنون. والحقيقة أنّكم ظننتم أن لن يرجع الرّسول ﷺ والمؤمنون إلى أهليهم أبدا، وزيّن الشّيطان الرّجيم والنّفس الأمارّة بالسّوء ذلك في قلوبكم، وظننتم بالله تعالى الظّنّ

السّيّء بأن يَخْذُل رسوله ﷺ والمؤمنين، وكنتم أيّها المتخلّفون من الأعراب عن رسول الله ﷺ قوماً هَلْكى بذنوبكم وتقصيركم في جنب الله تعالى. ومن لم يؤمن بالله تعالى وبرسوله ﷺ إيماناً مطلقاً فإنّا أعددنا للكافرين يوم القيامة ناراً مشتعلةً يدخلونها. ولله تعالى ملك السّماوات والأرض، يغفر لمن يشاء، ويعذّب من يشاء، وكان الله تعالى غفوراً ذنب من سأله المغفرة بصدق، رحيماً أن يعذّبه بعد أن هداه إلى التّوبة وقبلها منه.

لقد وعد الله تعالى المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ فتحاً قريباً، وهو فتح خيبر في رأي الجمهور، وكان قد بدأ في محرّم سنة سبع[1] وتمّ في صفر[2] سيقول المتخلّفون عنك يا محمّد من الأعراب إذا انطلقتم أيّها المؤمنون إلى مغانم لتأخذوها كغنيمة خيبر، دعونا نتّبعكم ونرافقكم. يريدون أن يبدّلوا كلام الله تعالى الّذي قضى بأنّ غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية وَحْدَهُمْ[3] قل يا محمّد لن تتّبعونا هكذا قال الله تعالى من قبل. فسيقولون: الحقيقة أنّكم

---

[1] السيرة النّبويّة ٣/٣٤٢.

[2] السّيرة النّبويّة ٣/٣٥٥.

[3] انظر تفسير الطّبري ٢٦/٥٠و٥١.

تحسدوننا وتريدون أن تنفردوا بالاستحواذ على الغنيمة. الحقيقة أنّهم لا يكادون يفقهون إلّا قليلاً ممّا يقال لهم.

قل يامحمّد للمتخلّفين عن الخروج معك من الأعراب ستدعون إلى قومٍ أولى بأسٍ شديدٍ كبني حنيفة وفارس والرّوم تقاتلونهم أو يسلمون. فإن تطيعوا يؤتكم الله تعالى أجراً حسناً وثواباً عظيماً، وإن تتولّوا كما تولّيتم من قبل يعذّبكم الله تعالى عذاباً عظيماً.

ليس على الأعمى ذنبٌ في التّخلّف عن القتال، ولا على الأعرج ذنبٌ ولا على المريض ذنب. ومن يطع الله تعالى طاعةً مطلقة، ومن يطع رسوله ﷺ طاعةً مطلقةً، يدخله جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار، ومن يُعْرض يعذّبه عذاباً أليماً.

لقد رضي الله تعالى عن المؤمنين إذ يبايعونك يا محمّد تحت شجرة السَّمُر زمن الحديبية على أن لايفرّوا أمام الأعداء في ميدان القتال، فعلم جلّ وعلا ما في قلوبهم من صدق الإيمان، فأنزل الطّمأنينة عليهم، والرّضا بصلح الحديبية، مع أنّ الشّروط في النّظرة الأولى العَجْلَى تبدو في غير صالح المسلمين، وجازاهم الله تعالى فتحاً قريباً، هو فتح خيبر الّذي سوف يتحقّق بإذن الله تعالى في صفر سنة سبع من الهجرة. وجازاهم مغانم كثيرةً يأخذونها

مستقبلاً. وكان الله تعالى عزيزاً في ملكه. حكيماً في صنعه. وعدكم الله تعالى مغانم كثيرةً تأخذونها مستقبلاً أيّها المؤمنون، فعجّل لكم هذه، وهي غنيمة خيبر الّتي ستتحقّق بإذن الله تعالى في المستقبل القريب، وكفّ أيدي النّاس عنكم، فلم يعرضوا بسوءٍ لأهلكم وأموالكم فترة خروجكم مع المصطفى ﷺ زمن الحديبية، ولتكون نعمة كفّ الأيدي عن أهلكم وأموالكم آيةً للمؤمنين بأنّ الله تعالى هو مولاهم، وليهديكم صراطاً مستقيماً يفضي إلى النّعيم المقيم في جنّات النّعيم.

ووعدكم ربّكم أيّها المؤمنون مدينةً أخرى لم تقدروا على فتحها، وهي مدينة مكّة المكرّمة، قد أحاط الله سبحانه وتعالى بها علماً، وبالأسباب المؤدّية إلى فتحها خُبْراً. وكان الله تعالى على كلّ شيءٍ قديراً، فلا يعجز الله تعالى شيءٌ في الأرض ولا في السّماء. والمعروف أنّ مكة المكرّمة قد تمّ فتحها في شهر رمضان سنة ثمانٍ من الهجرة[1] بسبب نقض قريش أحد شروط الصّلح.

ولو قاتلكم الّذين كفروا ياأيّها المؤمنون لولّوا الأدبار وانهزموا شرّ هزيمة ثمّ لا يجدون وليّاً يتولّى أمورهم ونصيراً يأخذ

---

[1] السّيرة النّبويّة ٤/٣١.

بأيديهم. تلك هي سنّة الله تعالى الّتي قد مضت من قبل. ولن تجد أيّها المؤمن ويأيّها الإنسان لسنّة الله تعالى تبديلاً ولاتغييراً. إن الحقّ جلّ وعلا هو الّذي يبيّن أنّ المشركين في الحديبية لو قاتلوا المسلمين لولّوا الأدبار ولم يستحيوا من الفِرار. لقد كان الفِرار من نصيب طلائع المشركين في الحديبية. وإن فرار الطّلائع مؤشّرٌ يدلّ على فرار الجيش. إنّ الله تعالى هو الّذي كفّ أيدي المشركين عنكم أيّها المؤمنون، وأيديكم أيّها المؤمنون عنهم ببطن مكّة زمن الحديبية من بعد أن أظفركم الله تعالى عليهم، وأسرتم طلائعهم، ومننتم على تلك الطّلائع بإطلاق سراحهم. وكان الله تعالى بما تعملون بصيراً.

إنّ المشركين هم الّذين كفروا بالله تعالى وبرسوله ﷺ، وصدّوكم عن المسجد الحرام زمن الحديبية، وصدّوا الهَدْيَ محبوساً عن أن يبلغ المحلّ الّذي ينبغي فيه ذبحه، ويجب فيه نحره. ولولا رجالٌ مؤمنون ونساءٌ مؤمناتٌ في الحرم مختلطين بالمشركين والمشركات لم تعلموهم أيّها المؤمنون أن تطئوهم بخيلكم فتصيبكم منهم مساءةٌ بغير علم، وإثمٌ من غير قصدٍ، لأذن الله تعالى لكم في الفتح. ولكنّ الله تعالى لم يأذن لكم في الفتح ليدخل الله تعالى في رحمته من يشاء من أولئك الكافرين بأن يشرح الله تعالى صدورهم

للإسلام. لو تميّز المؤمنون عن الكافرين لعذّب الله تعالى الّذين كفروا منهم عذاباً أليماً، وذلك حين جعل الّذين كفروا في قلوبهم حميّة الجاهليّة ونَعْرتها، فأنزل الله تعالى سكينته على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين، وألزمهم كلمة التّقوى وشهادة التّوحيد، وكانوا أولى النّاس بها وأهلها، وكان الله تعالى بكلّ شيءٍ عليماً.

لقد صدق الله تعالى رسوله محمّداً ﷺ الرّؤيا المناميّة بالحقّ، فقد تمّت عمرة القضاء في ذي القعدة من سنة سبع من الهجرة تنفيذاً لشروط صلح الحديبية[1] لتدخلنّ المسجد الحرام بإذن الله تعالى آمنين مطمئنّين محلّقين رءوسكم ومقصرين شعوركم بعد أداء النّسك لاتخافون شيئاً. فعلم عزّ وجلّ من المصلحة في صرفكم عن مكّة آنذاك مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً هو فتح خيبر في رأي بعضهم، وصلح الحديبية في رأي بعضهم.

إنّ الله تعالى هو الّذي أرسل رسوله محمّداً ﷺ بالهدى من الضّلالة وبدين الحقّ ليظهر دين الإسلام الّذي بعث به محمّداً ﷺ على الدّين كلّه. وكفى الله تعالى شاهداً على أنّ دين الإسلام سيظهر على سائر الأديان. ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تنزل على

---

[1] السّيرة النّبويّة ٤/١٢.

المصطفى ﷺ حينما كان معه عليه الصّلاة والسّلام زمن الحديبية زهاء ألفٍ وأربعمائة من الصّحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. وإنّ عدد المسلمين اليوم، كما هو معروف ، أكثر من ألف مليون مسلم ، أي زهاء خُمُس سكّان الكرة الأرضيّة. ولله الحمد والمنّة.

وكما كان الحقّ جلّ وعلا شهيداً على إظهار دين الإسلام على سائر الأديان، هو جلّ وعلا شهيدٌ على أنّ محمّداً ﷺ رسوله وخيرته من خلقه. والّذين معه ﷺ من الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم أشدّاء على الكفّار، رحماء بينهم، تراهم ركّعاً سجّداً في صلواتهم، يبتغون فضلاً من الله تعالى ورضوانا، علامتهم في وجوههم الوضيئة من أثر السّجود لله تعالى والخضوع والخشوع. ذلك وصفهم في التّوراة ومثلهم. ووصفهم في الإنجيل ومثلهم كزرع أخرج أغصانه فقوّت الأغصانُ الزّرعَ وشدّت من أزره فغلظ، وقام على سوقه وأصوله، يعجب الزّرّاع وهم المؤمنون الّذين دعوا إلى سبيل ربّهم بالحكمة والموعظة الحسنة، ليغيظ عزّ وجلّ بهم الكفّار. وعد الله تعالى الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات من الصّحابة ومن اقتفى أثرهم بإحسانٍ إلى يوم الدّين مغفرةً لذنوبهم وأجراً عظيماً في جنّات النّعيم.

من الاستعراض السّابق نستطيع بعون الله تعالى أن نرتّب المسائل الّتي أومأت إليه سورة الفتح المدنيّة الكريمة في مجال الإنباء بالغيب والحديث عن المستقبل على النّحو التالي:

١- صلح الحديبية.

٢- فتح خيبر.

٣- عمرة القضاء وتأويل رؤيا النّبيّ ﷺ.

٤- فتح مكّة المكرّمة.

٥- الأعراب المتخلّفون عن الجهاد في سبيل الله تعالى ودورهم لاحقاً في الفتوحات الإسلاميّة.

٦- إظهار دين الإسلام على جميع الأديان.

١- صلح الحديبية:

رَأَى المصطفى ﷺ في المنام أنّه دخل المسجد الحرام مع أصحابه رضوان الله تعالى عليهم، وأنّهم حلّقوا رءوسهم وقصّروا. قصّ النّبيّ ﷺ رؤياه على الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم ففرحوا، وأعلن عليه الصّلاة والسّلام أنّه يريد زيارة البيت الحرام. ولمّا كان عليه الصّلاة والسّلام يخشى أن تباغته قريشٌ بالحرب، لذا فقد دعا أهل المدينة المنوّرة ومن حولهم من الأعراب إلى أن يخرجوا معه عليه الصّلاة والسّلام، وقد استجاب قليلٌ من الأعراب لدعوته عليه الصّلاة والسّلام. خرج عليه الصّلاة والسّلام من المدينة المنوّرة يوم الاثنين غرّة ذي القعدة سنة ستّ من الهجرة[١] يريد العمرة وليس الحرب، في زهاء ألف وأربعمائة شخص[٢] وربّما زادوا قليلاً [٣] وحينما كان عليه الصّلاة والسّلام في الطّريق بلغه أنّ قريشاً قد أرسلت خالد بن الوليد طليعةً في مائتي فارس يستطلع أخبار المصطفى ﷺ والمسلمين، وأنّ الطّليعة عسكرت في

---

[١] انظر - مثلاً- فتح الباري ٥/٣٣٤ والسّيرة النّبويّة٣/٣٢١.

[٢] السّيرة النّبويّة ٣/٣٢٢.

[٣] انظر - مثلاً- فتح الباري ٥/٣٣٤.

مكانٍ يقال له كراع الغَمِيم[1] ولمّا كان النّبيّ ﷺ قد خرج يريد العمرة وليس الحرب، فقد مال بالجيش ذات اليمين، وسلك طريقاً وعراً، وسار حتّى أتى مكّة المكرّمة من أسفلها وليس من أعلاها. حتّى إذا سلك في ثنيّة [2] المُرار[3] مَهْبِط الحديبية من أسفل مكّة [4] بركت ناقته ﷺ فقال النّاس: خَلأَت القصواء[5] قال ﷺ: ما خَلَأت القصواء وماهو لها بخُلُق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكّة [6] لاتدعوني قريشٌ اليوم إلى خطّةٍ يسألونني فيها صلة الرّحم إلّا أعطيتهم إيّاها [7] ونزل النّبيّ ﷺ هنالك. وتمّت المراسلات بين النّبيّ ﷺ وبين قريش. وفي كلّ مرّةٍ يؤكّد لهم النّبيّ ﷺ أنّه إنّما جاء

---

[1] كراع: بالضمّ وآخره عينٌ مهملة. وكراع كلّ شيءٍ طَرَفه. وكراع الأرض ناحيتها. وكراع الغَميم: موضعٌ بناحية الحجاز بين مكّة والمدينة. وهو وادٍ أمام عُسْفان بثمانية أميال. معجم البلدان:"كراع".

[2] الثّنيّة: الطّريق في الجبل.

[3] السّيرة النّبويّة ٣/٣٢٤.

[4] السّيرة النّبويّة ٣/٣٢٤.

[5] انظر السّيرة النّبويّة ٣/٣٢٤ وفتح الباري ٥/٣٢٩ حديث رقم ٢٧٣١ و ٢٧٣٢ خلأت: حَرَنت ووقفت. والقصواء: ناقته ﷺ.

[6] أي حبسها الله عزّ وجلّ عن دخول مكّة كما حبس الفيل عن دخولها. وكان بمكّة في الحديبية جمعٌ كثيرٌ مؤمنون من المستضعفين.فتح ٥/٣٣٦.

[7] السّيرة النّبويّة٣/٣٢٤.

زائراً للبيت ومعظّماً لحرمته [1] وبعث النّبيّ ﷺ عثمان بن عفّان رضي الله تعالى عنه إلى أبي سفيان وأشراف قريش مؤكّداً لهم هذا المعنى، فبلّغ رسالة المصطفى ﷺ،واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أنّ عثمان بن عفّان قد قُتِل، فقال رسول الله ﷺ: لانبرح حتّى نناجز القوم، ودعا النّاس إلى البيعة، فكانت بيعة الرّضوان تحت الشّجرة، فكان النّاس يقولون: بايعهم رسول الله ﷺ على الموت. وكان جابر بن عبدالله يقول: إنّ رسول الله ﷺ لم يبايعنا على الموت ولكن بايعنا على أن لانفرّ [2] ثمّ أتى رسول الله ﷺ أنّ الّذي ذُكِر من أمر عثمان باطل. وقد أشارت سورة الفتح الكريمة إلى بيعة الرّضوان هذه في الآية الكريمة العاشرة، وإلى رضا الله تعالى عن الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم، الّذين بايعوا النّبيّ ﷺ، في الآية الكريمة الثّامنة عشرة.

وصل قريشاً نبأ بيعة الرّضوان فخافت واشتدّ ميلها إلى الصّلح الّذي عرضه النّبيّ ﷺ . وكما أكّد النّبيّ ﷺ بالقول إنّه جاء معظّماً للبيت الحرام وليس محارباً أكدّه بالفعل. فها هو ذا ﷺ يمنّ

---

[1] السّيرة النّبويّة ٣/٣٢٥.

[2] انظر السّيرة النّبويّة٣/٣٢٩و٣٣٠.

على الخمسين أسيراً الّذين أرادوا أن يبيّتوا المسلمين بالحديبية فأخذهم محمّد بن مسلمة وهو على الحرس[1] وأخيراً أرسلت قريش سهيل بن عمرو لإبرام الصّلح، فلمّا جاء سهيل قال النّبيّ ﷺ للمسلمين: قد سهل لكم من أمركم [2].

عرض سهيل بن عمرو على النّبيّ ﷺ الشّروط الّتي تريدها قريش وهي:

١- وضع الحرب بين المسلمين وقريش عشر سنوات.

٢- من جاء المسلمين من قريش يردّونه. ومن جاء قريشاً من المسلمين لايلزمون بردّه.

٣- أن يرجع النّبيّ ﷺ من غير عمرةٍ هذا العام. ثمّ يأتي العام المقبل فيدخل مكّة بأصحابه بعد أن تخرج منها قريش، فيقيم بها ثلاثة أيّام ليس مع أصحابه من السّلاح إلّا السّيف في القِراب[1] والقوس.

---

[1] انظر فتح الباري ٥/٣٤٢ وفي رواية هم ثمانون شخصاً.

[2] انظر فتح الباري ٥/٣٣١ حديث رقم ٢٧٣١ و٢٧٣٢.

[2] القراب بكسر القاف: غمد السّيف.

٤- من أراد أن يدخل في عهد محمّدٍ من غير قريش دخل فيه.ومن أراد أن يدخل في عهد قريش دخل فيه [٢].

قبل المصطفى ﷺ كلّ هذه الشّروط. أمّا المسلمون فقد داخلهم بسببها أمرٌ عظيم، لأنّ هذه الشّروط بدا لهم من ظاهرها أنّها في صالح المشركين، والحقيقة أنّها في صالح المسلمين. وإليك بيانَ ذلك.

بشأن وضع الحرب بين المسلمين وقريش عشر سنوات:"يقول الزّهريّ: فما فُتِحَ في الإسلام فتحٌ قبله كان أعظم منه. إنّما كان القتال حيث التقى النّاس. فلمّا كانت الهدنة ووُضعت الحرب وآمن النّاس بعضهم بعضا، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يُكلَّم أحدٌ بالإسلام يعقل شيئاً إلّا دخل فيه. ولقد دخل في تينك السّنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر.

قال ابن هشام :

والدّليل على قول الزّهريّ أنّ رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألفٍ وأربعمائة، في قول جابر بن عبدالله، ثمّ خرج عام فتح مكّة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف" [١].

---

[١] نور اليقين في سيرة سيّد المرسلين ٢١٤ وانظر السّيرة النّبويّة ٣٣٢/٣ وفتح الباري ٣٣١/٥ حديث رقم ٢٧٣١و٢٧٣٢.

وبشأن من جاء المسلمين من قريش يردّونه، ومن جاء قريشاً من المسلمين لايلزمون بردّه، كان النّبيّ ﷺ يبشّر كلّ من صادف هذا الابتلاء ويردّه عليه الصّلاة والسّلام إلى المشركين بأنّ الله تعالى جاعلٌ له فرجاً ومخرجاً. فهذا أبو جندل بن سهيل ابن عمرو مندوب قريش وممثّلها في كتابة عقد الصّلح مع النّبيّ ﷺ يجئ إلى النّبيّ ﷺ والمسلمين يرسف في الحديد وذلك في أثناء كتابة عقد الصّلح فينفّذ النّبيّ ﷺ الشّرط ويقول[٢]:" يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإنّ الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً. إنّا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله، وإنّا لا نَغْدِر بهم "وهذا أبو بصير[٣] عتبة بن أَسِيد بن جارية يأتي النّبيّ ﷺ في المدينة المنوّرة، وكان ممّن حُبس بمكّة المكرّمة، فيقول له النّبيّ ﷺ:" يا أبا بصير، إنّا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت، ولايصلح لنا في ديننا الغدر،

---

[١] السّيرة النّبويّة٣/٣٣٦.

[٢] السّيرة النّبويّة٣/٣٣٣.

[٣] قال ابن هشام: أبو بصير ثقفيّ. السّيرة النّبويّة ٣/٣٣٨.

وإنّ الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، فانطلق إلى قومك" [1].

واستطاع أبو بصير أن يفرّ إلى العِيص على ساحل البحر الأحمر،ولحق به أبو جندل [2] وآخرون من المسلمين المستضعفين:" فاجتمع إليه منهم قريبٌ من سبعين رجلاً، وكانوا قد ضيّقوا على قريش، لايَظْفَرون بأحدٍ منهم إلّا قتلوه، ولاتمرّ بهم عيرٌ إلا اقتطعوها، حتّى كتبت قريش إلى رسول الله ﷺ تسأله بأرحامها إلّا آواهم، فلا حاجة لهم بهم. فآواهم رسول الله ﷺ، فقدموا عليه المدينة" [3].

وبشأن رجوع النّبيّ ﷺ والمؤمنين من غير عمرةٍ ذلك العام ثمّ يأتي العام المقبل معتمراً كان كلّ ذلك بإرادة الله تعالى الحكيم الخبير الّذي علم أنّ كلّ الخير في التأخير، وهاهي ذي رؤيا النّبيّ ﷺ تتحقّق في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبعٍ من الهجرة، وهاهي ذي الآية الكريمة السّابعة والعشرون من سورة الفتح يجئ فيها القول: ﴿ لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ

---

[1] السّيرة النّبويّة ٣/٣٣٧.

[2] نور اليقين٢١٧.

[3] السّيرة النّبويّة ٣/٣٣٨.

ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحًا قَرِيبًا ﴾ أي فعلم في الصّلح من المصلحة مالم تعلموا.

وبشأن من أراد أن يدخل في عهد محمّدٍ من غير قريشٍ دخل فيه. ومن أراد أن يدخل في عهد قريشٍ دخل فيه، كان هذا الشّرط السّبب، بفضل الله تعالى، في فتح مكّة المكرّمة.

وهكذا يتبيّن أنّ صلح الحديبية إنّما أجاب المصطفى ﷺ المشركين إليه بوحيٍ من الله تعالى. وحينما كان النّبيّ ﷺ راجعاً إلى المدينة المنوّرة:" أنزل الله عزّ وجلّ هذه السّورة فيما كان من أمره وأمرهم. وجعل ذلك الصّلح فتحاً باعتبار مافيه من المصلحة، وما آل الأمر إليه، كما روي عن ابن مسعود – رضي الله عنه – وغيره أنّه قال: إنّكم تعدّون الفتح فتح مكّة، ونحن نعدّ الفتح صلح الحديبية. وقال الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال: ما كنّا نعدّ الفتح إلّا يوم الحديبية"[1] وروي أنّ النّبيّ ﷺ حينما أنزل الله تعالى عليه السّورة الكريمة ليلاً قرأها تلك اللّيلة على الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم:"فاجتمع النّاس عليه فقرأ عليهم:﴿ إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ

[1] تفسير ابن كثير ٣٠٧/٧.

فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ **قال[1] فقال رجلٌ من أصحاب رسول الله ﷺ: أَيْ رسول الله، وفتحٌ هو؟ قال: إِي والّذي نفس محمّد بيده إنّه لفتح"[2].**

٢- فتح خيبر:

[1] أي راوي الحديث.

[2] تفسير ابن كثير ٣٠٧/٧ من حديثٍ رواه الإمام أحمد.

بعد أن رجع النّبيّ ﷺ من الحديبية أقام بالمدينة المنوّرة ذا الحجة وبعض المحرّم، ثمّ خرج في بقيّة المحرّم إلى خيبر[1] وكان فتح خيبر في صفر[2] وقد أومأت سورة الفتح الكريمة إلى فتح خيبر في أكثر من موضع.

جاء في الآية الكريمة الخامسة عشرة قول الحقّ جلّ وعلا:﴿ سَيَقُولُ ٱلۡمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقۡتُمۡ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأۡخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعۡكُمۡۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمۡ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبۡلُۖ فَسَيَقُولُونَ بَلۡ تَحۡسُدُونَنَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَفۡقَهُونَ إِلَّا قَلِيلا ﴾**والمعنى ، والله تعالى أعلم، سيقول المتخلّفون من الأعراب عن الخروج معك يامحمّد إلى الحديبية إذا انطلقتم بعد عودتكم إلى المدينة المنوّرة واتّجهتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتّبعكم إلى خيبر فنشهد معكم قتال أهلها، يريدون أن يغيّروا وعد الله تعالى من شهد الحديبية أن يفتح عليهم خيبر، وأن يعطيهم وَحْدَهُمْ غنيمتها[3] قل لهم يامحمّد لن تتّبعونا، هكذا قال الله لنا من قبل مرجعنا إليكم: إنّ غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية معنا ولستم ممّن**

---

[1] السّيرة النّبويّة٣/٣٤٢.

[2] السّيرة النّبويّة٣/٣٥٥.

[3] انظر تفسير الطّبري ٢٦/٥٠.

شهدها، فليس لكم أن تتّبعونا إلى خيبر لأنّ غنيمتها لغيركم[1] فسيقول المتخلّفون من الأعراب عن الحديبية: الحقيقة أنّكم تحسدوننا وتريدون أن تنفردوا بالاستحواذ على الغنيمة . الحقيقة أنّهم كانوا لايفهمون إلّا القليل ممّا يقال لهم.

وكان النّبي ﷺ قد استنفر لغزوة خيبر من حوله من الأعراب الّذين كانوا معه بالحديبية. وجاء المخلَّفون عنها ليؤذن لهم فقال عليه الصّلاة والسّلام: لا تخرجوا معي إلاّ رغبةً في الجهاد، أمّا الغنيمة فلا أعطيكم منها شيئاً، وأمر منادياً ينادي بذلك[2].

وجاء في الآيات الكريمات الثّامنة عشرة، والتّاسعة عشرة، والعشرين قول الحق جلّ وعلا: ﴿ ۞ لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحًا قَرِيبًا ١٨ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأۡخُذُونَهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٩ ﴾ والمعنى، والله تعالى أعلم، لقد رضي الله تعالى عن المؤمنين إذ يبايعونك يا محمّد تحت شجرة السّمر بالحديبية على أن لا يفرّوا فعلم ما في قلوبهم من صحّة الإيمان

---

[1] تفسير الطّبري٢٦/٥١.

[2] نور اليقين في سيرة سيّد المرسلين ٢٢٧.

وصدق العزيمة فأنزل جلّ وعلا الطّمأنينة عليهم فرضوا بالصّلح وأثابهم فتحاً قريباً، وذلك فيما قيل فتح خيبر[1] وأثابهم مغانم كثيرة يأخذونها مستقبلاً. وكان الله تعالى عزيزاً في ملكه، حكيماً في صنعه. وعدكم الله تعالى أيّها المؤمنون الّذين صاحبوا المصطفى ﷺ في الحديبية مغانم كثيرةً تأخذونها مستقبلاً، فعجّل لكم غنيمة خيبر هذه[2] وصرف أيدي المشركين عنكم فلم يتعرّضوا بأذىً لأهلكم وأموالكم طوال غيابكم في الحديبية، ولتكون نعمة صرف أذى المشركين عن الأهل والأموال آيةً للمؤمنين بأنّ الله تعالى هو مولاهم، وليهديكم عزّ وجلّ طريقاً مستقيماً مفضياً بكم إلى النّعيم المقيم في جنّات النّعيم.

وجاء في الآية الكريمة السّابعة والعشرين قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ والمعنى، والله تعالى أعلم، لقد صدق الله تعالى رسوله محمّداً ﷺ الرّؤيا بالحقّ وبالصّدق. لتدخلنّ المسجد الحرام إن شاء الله تعالى آمنين مطمئنّين محلّقين شعر رءوسكم بعد أداء النّسك ومقصّرين، لا

---

[1] تفسير الطّبري ٢٦/٥٥.

[2] انظر تفسير الطّبري ٢٦/٥٦.

تخافون أبداً، فعلم جلّ وعلا من المصلحة في صرفكم عن مكّة المكرّمة عام الحديبية ما لم تعلموا، فجعل عزّ وجلّ من دون ذلك الفتح المبين فتحاً قريباً.

ويصحّ أن يكون الفتح القريب صلح الحديبية[1].

ويصحّ أن يكون الفتح القريب فتح خيبر[2].

ويلاحظ أنّ الآية الكريمة الأولى من السّورة الكريمة: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ تصف صلح الحديبية بالفتح المبين. كما يلاحظ أنّ الآية الكريمة الثّامنة عشرة تحدّثت عن الفتح القريب الّذي نميل إلى أنّه فتح خيبر. وهكذا يوصف فتح خيبر بأنّه الفتح القريب في كلٍّ من الآيتين الكريمتين الثّامنة عشرة، والسّابعة والعشرين.

وهكذا يكون صلح الحديبية هو الفتح المبين، وفتح خيبر هو الفتح القريب. والله تعالى أعلم.

---

[1] تفسير الطّبري ٦٨/٢٦.

[2] تفسير الطّبري ٦٩/٢٦ والسّيرة النّبويّة ١٤/٤.

٣- عمرة القضاء وتأويل رؤيا النّبيّ ﷺ:

تبدأ أحداث صلح الحديبية بالرّؤيا الّتي رآها المصطفى ﷺ بأنّه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام آمنين محلّقين رءوسهم ومقصّرين فخرج في ذي القعدة من سنة ستّ معتمراً لا يريد حرباً[١] بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب، وساق معه الهَدْي، وأحرم بالعمرة ليأمن النّاس من حربه، وليعلم النّاس أنّه إنّما خرج زائراً لهذا البيت معظّماً له[٢] وكان الهدي سبعين بَدَنَة[٣] وكان جابر بن عبدالله يقول: كنّا أصحاب الحديبية أربع عشرة مائة[٤] وقد أشارت الآية الكريمة السّابعة والعشرون من سورة الفتح إلى هذه الرّؤيا. قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ والمعنى، والله تعالى أعلم: لقد صدق الله

---

[١] السّيرة النّبويّة ٣/٣٢١.

[٢] السّيرة النّبويّة ٣/٣٢٢.

[٣] السّيرة النّبويّة ٣/٣٢٢.

[٤] السّيرة النّبويّة ٣/٣٢٢.

تعالى بالحقّ[1] رسوله محمّداً ﷺ الرّؤيا الّتي رآها بدخول المسجد الحرام مع أصحابه رضوان الله تعالى عليهم أجمعين . لتدخلنّ المسجد الحرام إن شاء الله تعالى آمنين مطمئنّين محلّقين كلّ رءوسكم ومقصرين بعض شعور رءوسكم بعد أداء النّسك لا تخافون أبداً. فعلم عزّ وجلّ في الصلّح مالم تعلموا فجعل عزّ وجل من قبل دخول المسجد الحرام لأداء عمرة القضاء في ذي القعدة من سنة سبع من الهجرة فتحاً قريباً، هو فتح خيبر الّذي بدأ في محرّم سنة سبع[2] وتمّ في صفر[3].

والمعروف أنّ سورة الفتح نزلت كاملةً على النّبيّ ﷺ في طريقه عليه الصّلاة والسّلام إلى المدينة المنوّرة بعد صلح الحديبيّة، أي في ذي القعدة من سنة ستٍّ من الهجرة. وإنّ مجئ القول: ﴿ لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ ﴾ في صيغة الزّمن الماضي إيماءٌ إلى تحقّق ذلك مستقبلاً على جهة اليقين، وكأنّ كلّ ذلك قد تحقّق فعلا من ذي قبل.

---

[1] انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٨٦/١٢ والجلالين.

[2] السّيرة النّبويّة ٣٤٢/٣.

[3] السيرة النّبويّة ٣٥٥/٣.

ولقد خرج النّبيّ ﷺ سنة سبع في ذي القعدة في الشّهر الّذي صدّه فيه المشركون معتمراً عمرة القضاء مكان عمرته الّتي صدّوه عنها[١] والقضاء بمعنى الحكم والفصل[٢]فقد جاء في صلح الحديبية: هذا ما قاضى عليه محمّد.هو فاعَل ، من القضاء: الفصل والحكم، لأنّه كان بينه وبين أهل مكّة[٣] ويقال لها عمرة القِصاص، لأنّهم صدّوا رسول الله ﷺ في ذي القعدة في الشّهر الحرام من سنة ستّ. فاقتصّ رسول الله ﷺ منهم فدخل مكّة في ذي القعدة في الشّهر الحرام الّذي صدّوه فيه من سنة سبع[٤] وخرج مع النّبيّ ﷺ المسلمون ممّن كان صُدّ معه في عمرته تلك[٥] وساق معه الهدي ستّين بدنة[٦] وتحقّقت رؤيا النّبيّ ﷺ سنة سبع كما شاء الله تعالى وليس سنة ستٍّ كما ظنّ المسلمون وتمنَّوْا. وأقام رسول الله ﷺ بمكّة ثلاثاً[٧] وكان أهل مكّة قد خرجوا عنه ﷺ

---

[١] السّيرة النّبويّة ٤/١٢.

[٢] انظر النّهاية في غريب الحديث والأثر ٤/٧٨.

[٣] النّهاية في غريب الحديث والأثر ٤/٧٨.

[٤] السّيرة النّبويّة ٤/١٢.

[٥] السّيرة النّبويّة ٤/١٢.

[٦] نور اليقين في سيرة سيّد المرسلين ٢٣٥.

[٧] السّيرة النّبويّة ٤/١٤.

في تلك الأثناء[1] وفي اليوم الثّالث جاءه وفد قريش وقالوا له: إنّه قد انقضى أجلك فاخرج عنّا. فقال النّبيّ ﷺ: وما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم، وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه[2] وكان رسول الله ﷺ تزوّج ميمونة بنت الحارث في سفره ذلك وهو حرام. وكان الّذي زوّجه إيّاها العبّاس بن عبدالمطلّب[3] فقال وفد قريش للنّبيّ ﷺ: لا حاجة لنا في طعامك فاخرج عنّا . فخرج رسول الله ﷺ ثمّ انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة في ذي الحجّة[4] .

وهكذا تكون رؤيا النّبيّ ﷺ أولى الحلقات في سلسلة أحداث صلح الحديبية. والرّؤى جنسٌ من الغيب. وكما جاء الحديث عن تصديق الحقّ جلّ وعلا بالحقّ وبالصّدق رؤيا حبيبه ﷺ في صيغة الزّمن الماضي، دليلاً على وجوب تحقّقها وتأويلها، جاء الحديث عن الفتح القريب. وهذا الفتح القريب هو فتح خيبر في رأي فريق من العلماء. وإذا كان ذلك كذلك كان فتح خيبر مظهراً من مظاهر إنباء السّورة الكريمة بالغيب. وهذا الفتح

---

[1] السّيرة النّبويّة ٤/١٢.

[2] السّيرة النّبويّة ٤/١٤.

[3] السّيرة النّبويّة ٤/١٤.

[4] السّيرة النّبويّة٤/١٤.

القريب في رأي فريق آخر من العلماء هو صلح الحديبية ذاته. وإذا كان ذلك كذلك كان الصّلح هو الآخر مظهراً من مظاهر إنباء السّورة الكريمة بالغيب. إنّ الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم كانوا يظنّون في مجموعهم أنّ شروط صلح الحديبية هي في صالح المشركين، وليس الأمر كما ظنّ هؤلاء. ومن الأدلّة على شعور المسلمين في مجموعهم بأنّهم مغبونون أنّ النّبيّ ﷺ حينما تلا ليلاً على أصحابه رضوان الله تعالى عليهم أجمعين سورة الفتح الّتي نزلت عليه تلك اللّيلة قال رجلٌ من أصحاب رسول الله ﷺ : أَيْ رسول الله، وفتحٌ هو؟ قال: إِي والّذي نفس محمّدٍ بيده، إنّه لفتح[1] .

[1] تفسير ابن كثير ٣٠٨/٧.

٤- فتح مكّة المكرّمة:

لقد جاءت الإشارة في سورة الفتح الكريمة إلى فتح مكّة المكرّمة في أكثر من موضع. وبسبب ترابط المعاني نحن نذكر الآيات الكريمات المترابطات المعاني ونفسّرها ومن ذلك يتّضح بإذن الله تعالى ما يخصّ فتح مكّة المكرّمة. جاء في الآيات الكريمات من العشرين حتّى السّابعة والعشرين قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأۡخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطًا مُّسۡتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخۡرَىٰ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ﴿٢١﴾ وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ

سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ﴾ **ومعنى الآيات الكريمات، والله تعالى أعلم، وعدكم الله تعالى يا أهل الحديبية مغانم مثيرةً تأخذونها مستقبلاً فعجل لكم غنيمة خيبر هذه، وكفّ أيدي المشركين عن إيذائكم في أهليكم وأموالكم، ولتكون نعمة كفّ أيدي المشركين آيةً للمؤمنين بأنّ الله تعالى وليّهم، وليهديكم صراطاً مستقيماً مفضياً إلى جنّات النّعيم. ووعدكم الله تعالى مدينةً أخرى لم تقدروا على فتحها، هي مدينة مكّة المكرّمة، قد أحاط الله تعالى علماً بطبيعتها وبأسباب فتحها في الوقت المناسب. وكان الله تعالى على كلّ شيءٍ قديراً. ولو قاتلكم الّذين كفروا يا أيها المؤمنون لولّوا الأدبار ثمّ لا يجدون لهم من دون الله تعالى وليّا ولا نصيراً. تلك هي سنّة الله تعالى الّتي مضت في الكافرين السّابقين بأن ينهزموا. ولن تجد أيّها المؤمن ويا أيّها الإنسان لسنّة الله تعالى تبديلاً ولا تغييراً.**

وهو جلّ وعلا الّذي كفّ أيدي المشركين عنكم يا أيّها المؤمنون، وكفّ أيديكم عنهم ببطن مكّة من بعد أن أظفركم عليهم في الحديبية بأسركم ثمانين رجلاً من أهل مكّة، هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التّنعيم متسلّحين يريدون غرّة النّبيّ ﷺ وغفلة أصحابه، فأخذهم عليه الصَّلاة استسلاماً وإذعاناً، فاستحياهم وأطلق سراحهم، تأكيداً لرغبته ﷺ في أداء العمرة وزيارة البيت الحرام وليس الحرب[1] وكان الله تعالى بما تعملون أجمعين بصيراً .

مشركو قريش هم الّذين كفروا وصدّوكم عام الحديبية عن المسجد الحرام وصدّوا الهدي محبوساً عن أن يبلغ مَحِلّ نحره والموضع الّذي إذا صار إليه حلّ نحره[2] ولولا رجالٌ مؤمنون ونساءٌ مؤمناتٌ لم تعلموهم أيّها المؤمنون أن تطئوهم بخيلكم فتصيبكم منهم مساءةٌ بغير علم، وذنبٌ من غير قصد، لأذن لكم في الفتح لكن لم يؤذن فيه حينئذ[3] لِيُدْخِلَ الله تعالى في رحمته من يشاء من المشركين بأن يشرح الله تعالى صدورهم للإسلام. لو تميّز المؤمنون عن الكفّار[1] لعذّبنا الّذين كفروا منهم عذاباً أليماً، حين جعل

---

[1] صحيح مسلم ١٤٤٢/٣ حديث رقم ١٨٠٨ وانظر ١٤٣٥/٣ حديث رقم ١٨٠٧.

[2] تفسير الطّبري ٦٠/٢٦ ولسان العرب : " حلل ".

[3] الجلالين.

[1] الجلالين.

الّذين كفروا في قلوبهم الحميّة حميّة الجاهليّة ونعرتها فأصرّوا على أن لا يدخل النّبيّ ﷺ والمسلمون المسجد الحرام ذلك العام، فأنزل الله تعالى سكينته على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين، وألزمهم كلمة التّقوى وشهادة أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله، وكانوا أحقّ بكلمة التّقوى وأهلها. وكان الله تعالى بكلّ شيءٍ عليماً.

لقد صدق الله تعالى رسوله محمّداً ﷺ الرّؤيا بالحقّ وبالصّدق. لتدخلنّ المسجد الحرام إن شاء الله تعالى العام القادم آمنين مطمئنّين، محلّقين رءوسكم ومقصّرين شعور رءوسكم بعد أداء النّسك لا تخافون أبداً . فعلم عزّ وجل في صلح الحديبية وفي عدم فتح مكّة المكرّمة ذلك العام من المصلحة والخير مالم تعلموا فجعل من قبل ذلك الفتح العظيم لمكّة المكرّمة فتحاً قريباً هو فتح خيبر.

والمعروف أنّ صلح الحديبية هو السبّب بفضل الله تعالى في فتح مكّة المكرّمة في شهر رمضان سنة ثمان[٢] فقد كان من شروط صلح الحديبية أنّ من أحبّ أن يدخل في عقد رسول الله ﷺ وعهده فليدخل فيه، ومن أحبّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه. فدخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم، ودخلت

---

[٢] السّيرة النّبويّة ٤/٣١.

خزاعة في عقد رسول الله ﷺ وعهده[1] وقبل مضيّ عامين اثنين على صلح الحديبية نقضت قريش وبنو بكر العهد. فقد بيّتت بنو بكر خزاعة وهم على ماءٍ لهم يقال له الوتير، ورفدت قريش بني بكر بالسّلاح، وقاتل معهم من قريش من قاتل باللّيل مستخفياً، حتّى ساقوا خزاعة إلى الحرم[2] فلما نقضت قريش وبنو بكر العهد الّذي بينهم وبين رسول الله ﷺ خرج عمرو بن سالم الخزاعي حتّى قدم على رسول الله ﷺ المدينة، فوقف عليه وهو جالسٌ في المسجد بين ظَهْرانيَ النّاس ، وأنشده أرجوزةً في الواقعة، وممّا جاء فيها قوله:

يارَبّ إنّي ناشدٌ[3] محمّداً
حِلْفَ أبينا وأبيه الأتلدا[4]
إنّ قريشاً أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكّدا
هم بيّتونا بالوَتِيرِ هجّدا
وقتّلونا ركّعاً وسجّداً[1]

---

[1] السّيرة النّبويّة ٤/٣٢. وطبعة دار المعرفة ٢/ ٣٣١ .

[2] السّيرة النّبويّة ٤/٣٢.

[3] ناشدٌ : طالبٌ ومذكّر.

[4] الأتلد : القديم

[1] السّيرة النّبويّة ٤/٣٦و٣٧.

فقال رسول الله ﷺ : نُصِرْتَ يا عمرُو بنَ سالم [٢].

وقد خرج رسول الله ﷺ من المدينة المنوّرة لعشر مضين من رمضان [٣] ودخل المصطفى ﷺ مكّة المكّرمة صبح يوم الجمعة لعشرين خلت من رمضان وكان جميع من شهد فتح مكّة من المسلمين عشرة آلاف [٤].

٥- الأعراب المتخلّفون ودورهم لاحقاً في الفتوحات الإسلاميّة:

بعد أن رأى النّبيّ ﷺ الرّؤيا بزيارة البيت الحرام دعا أهل المدينة المنوّرة ومن حولهم من الأعراب إلى أن يخرجوا معه عليه الصّلاة والسّلام خشية أن يلاقي حرباً مع قريش وحلفائها. وقد

---

[٢] السّيرة النّبويّة ٤/٣٧.

[٣] السّيرة النّبويّة٤/٤٢.

[٤] السّيرة النّبويّة ٤/٦٣.

تخلّف عن الخروج أكثر الأعراب. وفي سورة الفتح الكريمة حديثٌ مستفيضٌ عن هؤلاء الأعراب، وذلك في الآيات الكريمات الحادية عشرة، والثّانية عشرة، والخامسة عشرة، والسّادسة عشرة. ويعنينا في دراستنا هذه إعجاز الآيات الكريمات في مجال الإنباء بالغيب. جاء في الآيتين الكريمتين الحادية عشرة والثّانية عشرة قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ . ومعنى الآيتين الكريمتين، والله تعالى أعلم: سيقول لك يامحمّد المتخلّفون من الأعراب عن الخروج معك إلى الحديبية، وسيجيبونك إذا أنكرت عليهم بعد عودتك التّخلّف عن الجهاد في سبيل الله تعالى: شغلتنا أموالنا الّتي استصلحناها وأهلونا الّذين خشينا أن يباغتهم الأعداء في أثناء غيابنا عنهم، فاسأل الله تعالى أن يغفر لنا ذنبنا وتقصيرنا في جنبه عزّ وجلّ. إنّهم في طلبهم أن تستغفر الله تعالى لهم يا محمّد يقولون بألسنتهم ماليس في

قلوبهم المقبلة على الدّنيا، المنصرفة عن الآخرة، غير النّادمة على التّقصير في جنب الله تعالى. قل لهم يامحمّد: إن أنا استغفرت الله تعالى لكم وأراد هلاككم فمن يملك لكم من الله تعالى شيئاً، أو أراد جلّ وعلا بكم خيراً فمن يملك لكم من الله تعالى شيئاً غير ذلك. إنّ الأمر لله تعالى وَحْدَه دون سواه من قبل ومن بعد.

الحقيقة أنّ الله تعالى كان بما تعملون خبيراً مطّلعاً على أعمالكم ونيّاتكم. والحقيقة أنّكم ظننتم أن لن يعود الرّسول ﷺ والصّحابة رضوان الله تعالى عليهم إلى أهليهم أبداً، وزيّن الشّيطان الرّجيم والنّفس الأمّارة بالسّوء ذلك الظّنّ السّيّء في قلوبكم، وكنتم قوماً هلكى بسبب الذّنوب الّتي ارتكبتموها، ولم تستغفروا الله تعالى على ارتكابها، ولم تتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحاً بالنّدم عليها، والعزم على عدم معاودتها.

وهكذا يتبيّن أنّنا في مجال الإنباء بالغيب بصدد ماسوف يقوله المتخلّفون من الأعراب للرّسول ﷺ ، وبصدد فضح الله تعالى أولئك الأعراب بأنّهم في طلب الاستغفار يقولون بألسنتهم ماليس في قلوبهم، وبأنّهم في الاعتذار عن الخروج مع الرّسول ﷺ ليسوا صادقين في عذرهم. إنّ الله تعالى الّذي أحاط بعمل المتخلّفين وبنواياهم خُبْراً يبيّن الأسباب الحقيقية وراء القعود عن

الجهاد في سبيل الله تعالى. إنّهم ظنّوا أن لن يعود الرّسول ﷺ والمؤمنون إلى أهليهم مطلقا، وزيّن الشّيطان الرّجيم والنّفس الأمّارة بالسّوء ذلك الظّنّ السّيّء في قلوبهم المريضة.

وجاء في الآيتين الكريمتين الخامسة عشرة والسّادسة عشرة القول: ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾ **ومعنى الآيتين الكريمتين، والله تعالى أعلم: سيقول المتخلّفون عن الجهاد في سبيل الله تعالى من الأعراب إذا انطلقتم مستقبلاً إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتّبعكم ومكّنونا من اللّحاق بكم والقتال معكم. يريد هؤلاء الأعراب أن يغيّروا وعد الله تعالى من شهد الحديبية أن يفتح عليهم خيبر، وأن يعطيهم وحدهم غنيمتها [1]قل لهم يامحمّد لن تتّبعونا. كذلكم قال الله تعالى من قبل بأنّ غنيمة خيبر لمن شهد**

---

[1] انظر تفسير الطّبري٢٦/٥٠.

الحديبية معنا، ولستم ممّن شهدها[٢] فسيقولون: الحقيقة أنّكم تحسدوننا وتريدون أن تأخذوا الغنيمة وَحْدَكُمْ. الحقيقة أنّ أولئك الأعراب لا يكادون يفهمون إلّا قليلاً ممّا يقال لهم.

قل يامحمّد للمتخلّفين عن الخروج معك من الأعراب ستدعون إلى قومٍ أولى بأسٍ شديد، وبطشٍ أكيد، مثل بني حنيفة قوم مسيلمة الكذّاب وفارس والرّوم ومن إليهم، تقاتلونهم إن أصرّوا على دينهم وعلى عدم دفع الجزية أو يسلمون فيكونون إخواناً لكم، لهم مالكم، وعليهم ماعليكم. فإن تطيعوا يؤتكم الله تعالى أجراً عظيماً في الأولى والآخرة. وإن تتولّوا وتنكصوا عن الجهاد في سبيل الله تعالى كما فعلتم من قبل يعذّبكم الله تعالى في الأولى والآخرة عذاباً أليماً موجعاً.

وهكذا يتبيّن أنّنا في مجال الإنباء بالغيب بصدد ما سوف يقوله المتخلّفون من الأعراب للمؤمنين الّذين سوف ينطلقون على جهة الخصوص إلى خيبر قريباً: مكّنونا من اللّحاق بكم والقتال معكم. يريد أولئك الأعراب أن يغيّروا وعد الله تعالى من شهد الحديبية بأنّ لهم غنيمة خيبر وَحْدَهُمْ مكافأةً لهم على رضاهم بما

---

[٢] انظر تفسير الطّبري٢٦/٥١.

كتب الله تعالى من صلح في الحديبية، وتعويضاً لهم عن عدم حصولهم على شيءٍ من الغنائم بسبب ذلك الصُّلح . إنّ أولئك الأعراب سوف يزعمون أنّ الباعث للمؤمنين على منعهم من الخروج معهم إلى خيبر حسدهم للأعراب أن يشاركوهم في الغنيمة، وكذب الأعراب الّذين لا يكادون يفقهون إلّا قليلاً ممّا يقال لهم.

وإنّ هؤلاء الأعراب المتخلّفين عن الجهاد في سبيل الله تعالى سوف يُدْعون إلى قتال قومٍ أولى بأسٍ شديد يقاتلونهم أو يسلمون. إنّ لأولئك الأعراب إن أطاعوا أجراً عظيماً، وإن تخلّفوا عن الجهاد في سبيل الله تعالى عذاباً أليماً.

لقد تحقّق مستقبلاً كلّ الّذي أنبأت به الآيات الكريمات من غيب في مجال الفتوحات الإسلاميّة.

٦- إظهار دين الإسلام على جميع الأديان:

جاء في الآية الكريمة الثّامنة والعشرين قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾ والمعنى، والله تعالى أعلم، الله تعالى

هو الّذي أرسل رسوله محمّداً ﷺ بالهدى من الضّلالة، وبدين الإسلام الحقّ الّذي أكمله ورضيه لعباده وأتمّ به النّعمة عليهم ليظهر عزّ وجلّ دين الإسلام الّذي بعث به محمّداً ﷺ على جميع الأديان، السّماويّة وغير السّماويّة، وكفى الله تعالى شهيداً، هكذا في صيغة المبالغة، بأنّ دين الإسلام الّذي بعث به محمّداً ﷺ سيظهر على كلّ الأديان، وأنّ الأمّة الإسلاميّة ستكون أكثر الأمم، وأنّ أتباع محمّد ﷺ سيكونون الأكثر من أتباع سائر النّبيّين والمرسلين، عليهم صلوات الله تعالى وسلامه أجمعين.

وهذا المعنى أكّدته الآية الكريمة الّتي جاءت في كلّ من سورة التّوبة والصّفّ المدنيّتين. جاء في الآية الكريمة الثّالثة والثلاثين من سورة التّوبة، والآية الكريمة التّاسعة من سورة الصّف قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾.

ويلاحظ أنّ سورة الفتح الكريمة نزلت في ذي القعدة سنة ستّ من الهجرة في طريق عودته عليه الصّلاة والسّلام من الحديبية، وكان كلّ الذّين معه عليه الصّلاة والسّلام في حدودٍ ألفٍ وخمسمائة شخص. وكان عدد المسلمين آنذاك لايزال قليلاً .

وبعد زهاء عامين اثنين كان معه عليه الصّلاة والسّلام في فتح مكّة عشرة آلاف شخص. وفي حجّة الوداع سنة عشر من الهجرة يصل بعض الدّارسين بعدد الّذين حجّوا معه الصّلاة والسّلام إلى زهاء مائة ألف شخص[1] ولا يزال عدد المسلمين في ازديادٍ بفضل الله تعالى باضطراد. ويزيد عدد المسلمين اليوم على ألف مليون شخص ولله الحمد والمنّة. والمسلمون إن لم يكونوا اليوم أكثر الأمم فإنّهم في طريقهم بإذن الله تعالى كي يكونوا كذلك مصداقاً لقول الله تعالى الحقّ، ووعده عزّ وجلّ الصّدق.

وممّا هو لطيفٌ في سورة الفتح المدنيّة الكريمة ويجمل الوقوف عنده أنّ السّورة الكريمة تنصّ في تسع آيات كريماتٍ على أنّ محمّداً رسول الله تعالى، وقد ابتدأت الآية الكريمة الأخيرة من السّورة الكريمة بالشقّ الآخر من الشّهادة: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ وهذا العدد الكبير من المرّات الّتي ينصّ فيها على الرّسالة والرّسول فيه تسليةٌ للمصطفى ﷺ من ناحية، وتسفيهٌ من ناحيةٍ أخرى لمشركي قريش الّذين ينكرون رسالة محمّد ﷺ والّذين أصرّ ممثّلهم في الصّلح، سهيل بن عمرو على أن يحذف محمّدٌ ﷺ من

---

[1] الرّسالة المحمديّة للسّيّد سليمان النّدوي ٧١.

وثيقة الصّلح صفة الرّسالة وأن يكتفي عليه الصّلاة والسّلام بذكر اسمه واسم أبيه، ففعل ﷺ ذلك.

وواضح أنّ إنباء سورة الفتح الكريمة بإظهار الله تعالى دين الإسلام على الدّين كلّه هو الأطول زمناً من بين سائر المظاهر الأخرى في مجال إنباء السّورة الكريمة بالغيب والمستقبل. إنّ هذا المظهر من مظاهر الإنباء بالغيب يمتدّ إلى قيام السّاعة. وبفضل الله تعالى يتأكّد إظهار الله تعالى دين الإسلام على الدّين كلّه، بتصرّم اللّيالي والأيّام، والشّهور والأعوام، وبتوالي العقود والقرون. وصدق الله تعالى القائل في محكم التّنزيل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾.

الخاتمة

بشأن هذه الدراسة بعنوان: لمحاتٌ في إعجاز سورة الفتح، أشرنا في الصّفحات السّابقة إلى بعض المسائل الّتي تسلّط شيئاً من الضّوء على السّورة المدنيّة الكريمة الّتي يدور محورها حول

صلح الحديبية الّذي تمّ في ذي القعدة سنة ستٍ من الهجرة. ولمّا كانت السّورة الكريمة تكاد تشتمل من بين سور القرآن الكريم على أكبر حشدٍ من الأنباء في مجال الغيب والحديث عن المستقبل فقد اقتصرت الدّراسة بشأن إعجاز السّورة الكريمة على هذا الجانب وَحْدَه. ومنْ أجل تبيين وحدة السّورة الكريمة عضوياً والتحامها بموضوعها الأساس ومحورها وهو صلح الحديبية كان علينا أن نستعرض سريعاً معاني السّورة الكريمة بين يدي الحديث عن إعجازها.

واللهَ تعالى أسأل أن يتقبّل هذا العمل وينفع به، إنّه جوادٌ كريم.

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين.

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم

ابن الأثير (مجد الدّين أبو السّعادات المبارك بن مُحَمَّد الجزري) النّهاية في غريب الحديث والأثر. تحقيق طاهر أحمد

الزّاوي، محمود محمّد الطّناحي. المكتبة العلميّة بيروت. بدون تاريخ.

ابن حجر (الحافظ أحمد بن عليّ بن حجر العسقلاني) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، تحقيق عبد العزيز بن عبد الله بن باز،محمّد فؤاد عبد الباقي،محبّ الدين الخطيب ، المكتبة السلّفيّة .

ابن كثير (عماد الدّين أبو الفدا إسماعيل بن كثير) تفسير القرآن العظيم.دار الشّعب.بدون تاريخ تحقيق عبدالعزيز غنيم،محمّد أحمد عاشور،محمّد إبراهيم البنّا.

ابن منظور (جمال الدّين محمّد بن مكّرم)لسان العرب.بيروت ١٣٧٤هـ -١٩٥٥م.

ابن هشام (عبد الملك) ، السّيرة النّبويّة،تحقيق مصطفى السّقّا، إبراهيم الإبياري،عبد الحفيظ شلبي.حلبي. تصوير بيروت.بدون تاريخ.

الخضري (محمّد) نور اليقين في سيرة سيّد المرسلين. الطبعة الثانية. دار المعارف للطباعة. بدون تاريخ.

السّيوطي (جلال الدّين عبدالرحمن) الإتقان في علوم القرآن. تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم. الهيئة المصريّة العامّة للكتاب ١٩٧٤م الجلالين.

صافي (محمود) الجدول في إعراب القرآن وصرفه. تصنيف محمود صافي. مراجعة لينة الحمصي. دار الرشيد -

دمشق– بيروت. الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ–١٩٨٨م.
الطّبري (أبو جعفر مُحَمَّد بن جرير) جامع البيان في تفسير القرآن ، الطّبعة الأولى ، بولاق ، ١٣٢٩هـ .
مسلم (الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجّاج القشيري النّيسابوري) كتاب الصحيح. تحقيق محمّد فؤاد عبد الباقي.حلبي . نسخة مصوّرة.
النّدوي (السّيد سليمان) الرّسالة المحمّدية الطبعة الثالثة ١٤٠١هـ ١٩٨٢م دمشق.
الواحدي النّيسابوري (الحسن بن محمّد بن حسين) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان. مطبوع بهامش تفسير الطبري الطبعة الأولى. بولاق.١٣٢٩هـ .
ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي) معجم البلدان،بيروت ١٣٧٤هـ ، ١٩٥٥م .

فهرست الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
المقدّمة	٣

أوّلاً: مسائل متعلّقة بسورة الفتح	٥
ثانياً: إعجاز سورة الفتح في مجال الإنباء بالغيب.....	١٣
الطّابع الخاصّ لسورة الفتح الكريمة	١٤
١- صلح الحديبية.....	٢٥
٢- فتح خيبر	٣٤
٣- عمرة القضاء وتأويل رؤيا النّبي ﷺ	٣٨
٤- فتح مكّة المكرّمة	٤٣
٥- الأعراب المتخلّفون عن الجهاد في سبيل الله تعالى ودورهم لاحقاً في الفتوحات الإسلاميّة.	٤٩
٦- إظهار دين الإسلام على جميع الأديان	٥٤
الخاتمة	٥٧
فهرست المصادر والمراجع	٥٨
فهرست الموضوعات	٦٠